الأواني النحاسية الجزائرية في العهد العثماني

د. طيان شريفة طيان ساحد
أستاذة محاضرة
معهد الاثار- جامعة الجزائر2

الكلمات المفتاحية : معدن، نحاس، عثماني، زخرفة.

الملّخص : يهدف هذا المقال إلى إبراز الأواني النحاسية الجزائرية للفترة العثمانية التي تتسم بالتنوع والكثرة حيث لقيت رواجا كبيرا لدقتها وإتقانها في الصناعة والزخرفة على حد سواء، ويمكن تقسيم هذه الأواني النحاسية إلى ثلاث مجموعات، يزخرف معظمها بأسلوب التطريق، تضم المجموعة الأولى أواني خاصة بالصواني والسينيات، وتضم المجموعة الثانية أواني مختلفة الوظائف مصنوعة تقريبا بنفس التقنية إلا أنها تتشابه في كونها قليلة العمق، وتضم المجموعة الثالثة أواني مختلفة الأشكال والوظائف تتّفق في كونها أواني كبيرة العمق.

Résumé :

Cet article vise à montrer la dinanderie algérienne remontant à l'époque ottomane avec toute sa panoplie et ses variétés typologiques enveloppant des décors réalisés par la technique du repoussage. Cette dinanderie se répartit en trois catégories distinctes, la première constitue les plateaux de différentes dimensions, la seconde est caractérisée par des objets de différentes fonctions avec un fond creux, quant à la troisième catégorie, elle est matérialisée par des objets de différentes formes et fonctions avec un fond très profond.

المقـدمـة

تعتبر الأواني النحاسية أكثر ما وصل إلينا من التحف التي نجت من عملية الصهر مقارنة بالتحف المصنوعة من الذهب والفضة، وحتى ولو صهر البعض فقد بقي البعض الآخر محفوظا بالمتاحف الجزائرية.

يذكر بعض الكتّاب أن الفنون المعدنية الجزائرية في العهد العثماني لم تبلغ درجة كبيرة من الجودة والإتقان كمثيلتيها التونسية والفاسية وهذا رغم كثرتها وتنوّعها، فبقي أسلوبها بسيطا ومتواضعا حتى قدوم الصناع السوريين الذين لقيت صناعتهم رواجا كبيرا في روعتها وإتقانها[1]، والدقة في التقنيات الصناعية والزخرفية. والجدير بالذكر أن الصناعة السورية كانت منافسة للصناعات الجزائرية ونفس الشيء يقال عن الصناعات الأوربية[2]، وممّا لا شك فيه أن المنافسة تعني الجودة أي أن الصناعة الجزائرية كانت ذات جودة وإتقان عاليين.

يؤكّد آخرون أن نحاسيات الجزائر في العهد العثماني كوّنت مدرسة خاصة في القرن 12 هـ/ 18م ويتّضح ذلك من خلال زخارفها المميّزة خاصة المشتبكة منها وعنصر الزخرفة الشجرانية المتمثّلة في شجرة السرو المنفّذة بالأسلوب الجزائري المحض[3].

ومما يدل على ازدهارها هي تلك المجموعات الكبيرة التي وصلتنا وبصفة خاصة تلك المرتبطة بالاستخدام اليومي، كما تكمن أهمية هذه التحف في أن البعض منها يحمل أسماء صانعيها وكتابات أخرى تتضمّن تاريخ صنعها وأسماء الأشخاص الذين صنعت لهم كما كانت توقّف وذلك من خلال عبارات الوقف،

بالإضافة إلى أنها كانت تتضمّن آيات قرآنية وعبارات دعائية وأمثال وحكم والتي تتناسب في مضمونها وطبيعة التحفة ووظيفتها. كما اتّخذ بعضها في بعض الأحيان شكل الطغراء، ويلاحظ أن بعض هذه الكتابات دوّن باللغتين العربية والتركية (صورة رقم : 1).

كما ارتبطت صناعة بعض التحف المعدنية بغرض الاستعمال في بعض المنشآت الخيرية وبصفة خاصة العيون، وتتمثّل هذه التحف في الطاسات النحاسية التي كان يستخدمها العامة في شرب الماء والتي كانت تعلّق بسلاسل حديدية. وفيما يخص المواضيع الزخرفية فقد تميّزت بالتنوّع، إذ استخدم الفنانون الزخارف النباتية بأنواعها والزخارف الهندسية المختلفة وغيرها من المواضيع.

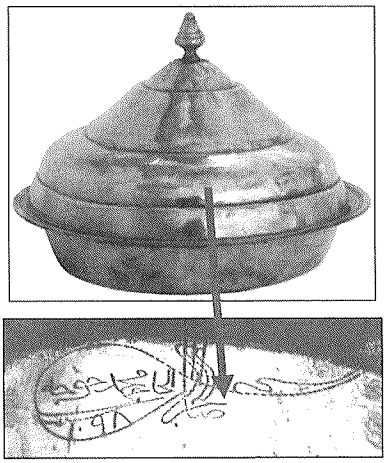

صورة رقم : 1- طبق كسكسى يحمل اسم وتاريخ صاحبه (الحاج محمد خوجة سنة 1098).

محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية – الجزائر-

يمكن تقسيم هذه الأواني النحاسية إلى ثلاث مجموعات، وقد كان يزخرف معظمها بأسلوب التطريق الذي يظهر من خلاله أشكال مفصّصة تشبه بتلات زهرة اللوتس، يضاف إلى ذلك أن كل الأغطية يعلوها زر ماسك بمثابة المقبض، يتّبع فيه الشكل العام للغطاء والآنية مما يؤكّد مراعاة الفنان لتناسق الأشكال وتناسق الزخرفة معا.

تضم المجموعة الأولى أواني خاصة بتقديم الأكل ووضعه، وتتمثّل في الصواني الكبيرة والصغيرة ولكل نوع وظيفته الخاصة.

أما المجموعة الثانية فتضم أواني مختلفة الوظائف مصنوعة تقريبا بنفس التقنية إلا أنها تتشابه في كونها قليلة العمق، وتتمثّل في الأطباق بأنواعها والطاسات بأشكالها المختلفة.

وبالنسبة للمجموعة الثالثة فتضم أواني مختلفة الأشكال والوظائف تتّفق في أنها تصنع تقريبا بنفس التقنية زد إلى ذلك أنّها أواني كبيرة العمق، كالدلاء بأنواعها والقدور والميضيئات والأباريق بأنواعها بالإضافة إلى الشمعدانات والمباخر، كما يضاف إلى التحف النحاسية أواني أخرى كغلايات القهوة الصغيرة والكبيرة الحجم على السواء تختلف أسماؤها من منطقة لأخرى، فتعرف باسم ياداك في مدينة الجزائر وتناكة بمدينة قسنطينة يستعملها أصحاب المقاهي لغلي الماء[4]. بالإضافة إلى صناعة الملاعق النحاسية التي يقوم بها صنّاع مختصّون في ذلك يعرفون باسم مغارفجي[5] نسبة إلى مغرفة وهي تسمية محلية لكلمة ملعقة.

1- **الصواني والسينيات (صورة رقم : 2)**

تعتبر الصواني والسينيات أهم التحف النحاسية التي يضمها أثاث البيت الجزائري إذ لا يخلو أي بيت منها، يكسبها الفقير والغني على السواء لأن غرضها وظيفي أكثر منه زخرفي.

الأحمر المطروق توضع على قواعد أو قوائم خشبية، وهي كبيرة الحجم ودائرية الشكل وعادة ما تغطى بطبقة من مادة القصدير ككل الأواني النحاسية الجزائرية، وهي منقوشة بزخارف متعدّدة المواضيع، تنتهي هذه الصواني بحافة مرتفعة غالبا ما تكون مفصّصة، وهي ميزة اختصّت بها الصناعة الجزائرية. ويوضع على هذه الصواني كل أنواع المأكولات فيما عدا القهوة التي لها صينيتها الخاصة وهي أقل حجما تسمى محليا سنيوة تصغيرا للصيني.

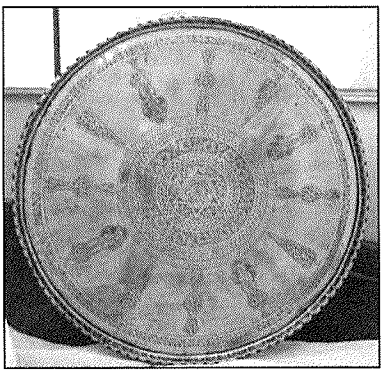

صورة رقم : 2– صينية مستديرة الشكل

– محفوظة بمتحف الفنون والتقاليد الشعبية- الجزائر.

2- **الأواني القليلة العمق**

2.1- **الأطباق** (صورة رقم : 3)

تصنع الأطباق من النحاس الأحمر وتطلى بمادة القصدير، وتختلف باختلاف أحجامها ووظائفها، فتضم أطباقا خاصة بالكسكسى معروفة باسم تبسي عشاوات بمدينة الجزائر، يبدو أن أصلها من تركيا حيث كان الأتراك يستعملونه في حفظ الأرز، ويسمى عندهم PILAVLIK نسبة إلى الأرز[7]، ثم أصبح فيما بعد يحفظ فيه الكسكسى الجزائري. شكل الطبق دائري ويتكوّن من قطعتين : القطعة الأولى عبارة عن صحن مخصص لوضع الكسكسى، أما القطعة الثانية فهي عبارة عن غطاء ذي شكل مخروطي يعلوه زر ماسك، ويأخذ هذا الأخير شكل الطبق العام. لقد اختلفت أحجام الأطباق وتعددت أشكالها، فظهرت الأطباق الصغيرة الحجم وهي خاصة بأهل الدار وأخرى كبيرة مخصّصة للولائم، وعادة ما يستعملها الداي أثناء وجبات الطعام له ولحاشيته، أما فيما يخص زخارفها فيستعمل فيها أساليب عديدة أهمها التطريق والنقش والحز.

صورة رقم : 3 - طبق كسكسى كبير الحجم خاص بالولائم

محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية – الجزائر-

2.2- **المسمنة** (صورة رقم : 4)

أما النوع الثاني من الأطباق فهو طبق خاص لحفظ السمن يعرف باسم "**مسمنة**"[8]، كما يعرف باسم **الزبدية** وتعرف عند العامة باسم "**الجبانة**"، يبدو من خلال التسمية الأخيرة أن هذا الطبق كان يستعمل لحفظ السمن والجبن على السواء ولكن لمدّة قصيرة أثناء الأكل. حجم هذا الطبق أصغر بكثير من الطبق الأول، يتألّف من قطعتين : الأولى عبارة عن إناء خاص بوضع السمن، والثانية هي غطاء يأخذ تقريبا نفس شكل الإناء يعلوه زر ماسك.

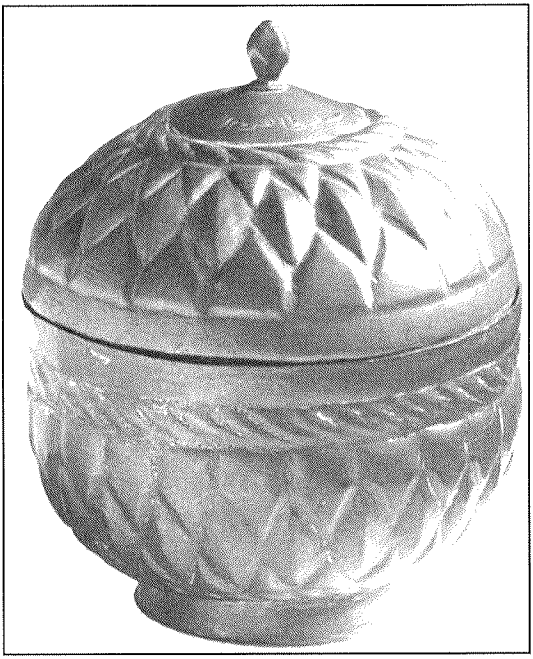

صورة رقم : 4 - مسمنة تحمل اسم الصانع وتاريخ الصنع (سيد طاهر1125).

محفوظة بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية – الجزائر-

ملاحظة : يبدو أن الاسم الكامل للصانع هو الطاهر بن محمد بن مهران من جماعة الصفارين[9].

وصف الضابط Rozet مائدة طعام الآغا وقت غذائه ويذكر فيها هذا الطبق الذي أثار انتباهه كما يصف المائدة والأواني الموجودة فوقها والمصنوعة كلها تقريبا من الفضة، كما يصف نوعا آخرا من المسمنة بدون غطاء خاص بحفظ السمن الذائب لمدّة معيّنة يشبه الدلو له مقبضان صغيران يحملان سلسلة لتعليقه[10] (صورة رقم : 5).

يبدو أن السمن اقتصر استعماله في الأسر الميسورة الحال، وكان من جملة المواد المستهلكة من قبل الأثرياء[11]، وهذا ما تؤكّده الأطباق الخاصة بحفظه والتي عني بصناعتها وتنوع أشكالها وزخارفها المنفّذة بعدة أساليب.

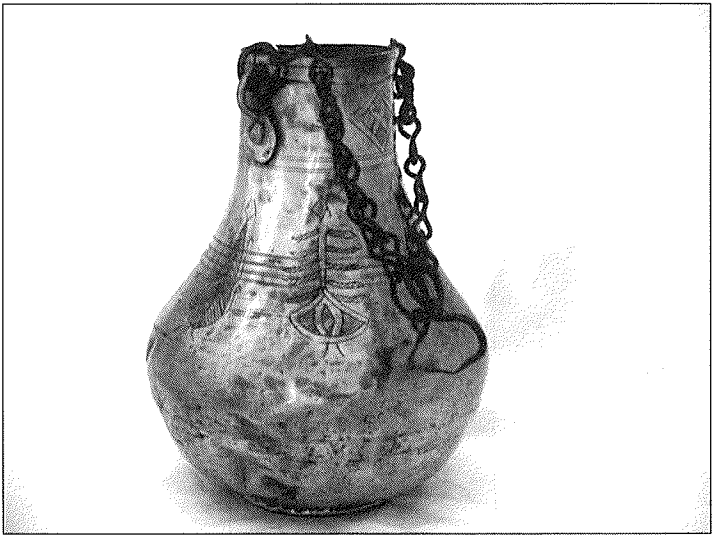

صورة رقم : 5 – مسمنة كمثرية الشكل بسلسلة للتعليق
محفوظة بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية - الجزائر –

3.2- **السكريات** (صورة رقم : 6)

هي أواني صغيرة الحجم تصنع من مادتي النحاس أو الفضة، وتغطى السكرية المصنوعة من النحاس بطبقة من القصدير، وهي تشبه المسمنة التي يخلط الكثير بينهما، فالمسمنة هي إناء مكوّن من قطعتين تزخرف بأسلوب التطريق في غالب الأحيان أو بأسلوبي النقش والحز بحيث لا يمكن رؤية ما بداخل الإناء، بينما السكرية

يكون غطاؤها مخرما لرؤية السكر ومزوّد بزر ماسك. ومما تجدر الإشارة إليه أن السكر المستعمل في العهد العثماني ليس هو النوع المعروف حاليا، وإنما كان عبارة عن قالب يشبه شكل القنديل فأصبح يسمى به نسبة إلى شكله (سكر قنديل) وعند ظهور السكر الاصطناعي في شكله الحالي، أصبحت المسمنة تستعمل كسكرية وفقدت بذلك وظيفتها الخاصة بها.

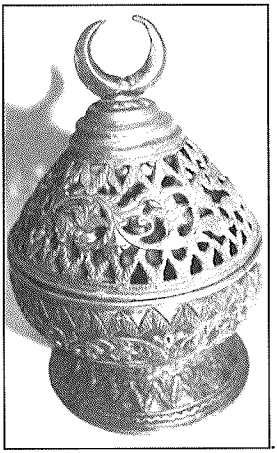

صورة رقم 6 : سكرية ذات بدن نصف كروي وغطاء مخرم
- محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة – الجزائر-

4.2- **الطاسات** (صورة رقم : 7)

الطاسة كلمة عربية وهي مقتبسة من كلمة طست أو دست والتي تعني الحوض[12]. وهي إناء مستدير ذو أشكال وأحجام مختلفة، تحوي الطاسة على مقبض وقاعدة، فمنها المحدّب قليلا دون قاعدة ودون مقبض، وهناك طاسات كبيرة الحجم تتكوّن من إناء وغطاء.

وللطاسات وظائف عديدة، تستعمل في الحمام لملء الماء لغرضي الغسل والوضوء، كما تستعملها المرأة لتحضير الحناء بالماء لغرض التجميل. أما بالنسبة للطاسات الكبيرة والتي تحوي على غطاء فتستعملها المرأة كذلك لوضع ماء الورد في مناسبتي الزواج وختان الأطفال حيث تمرّر على المدعوين والضيوف للتذوّق والتبرّك[13]. وقد ورد هذا النوع من الطاسات في ممتلكات الداي عند استيلاء الفرنسيين على القصر، وتوجد هذه الطاسات حاليا محفوظة في متحف اللوفر بباريس[14]. ويدخل ضمن هذه الطاسات أنواع صغيرة الأحجام تحوي على مقبض طويل تسمى طويسة أو جزوة مع العلم أن هذا المصطلح الأخير له معنى آخر ويدخل ضمن أباريق القهوة.

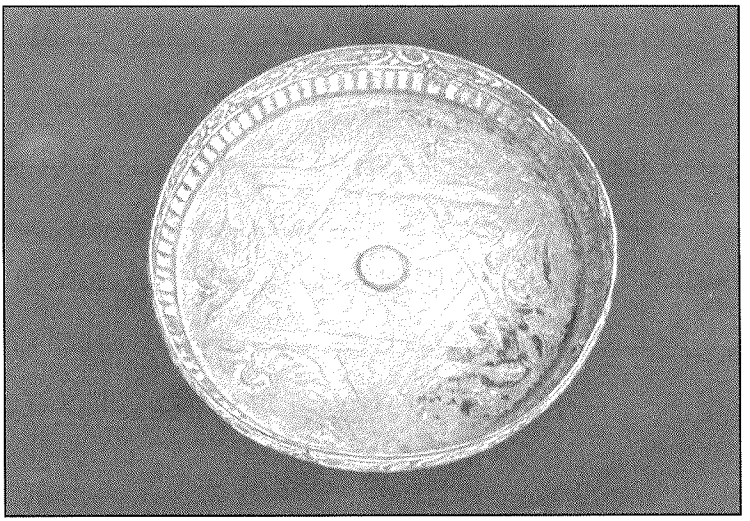

صورة رقم : 7 - طاسة دائرية الشكل

محفوظة بالمتحف الوطني الباردو - الجزائر-

5.2- **السطل** (صورة رقم : 8)

السطل هو عبارة عن قدح كبير محدّب الشكل ويعلوه مقبض ذي حلقة صغيرة يصنع من الفضة والنحاس على السواء، يغطى السطل المصنوع من النحاس بطبقة من الفضة أو القصدير، ويزخرف بأسلوب التطريق.

من المؤكّد أن هذا النوع من الأواني المعدنية اختصّت به مدينة الجزائر عن غيرها من المدن[15]، أما بالنسبة لوظائفه فيستعمل لأغراض مختلفة. إذ يعتبر آنية خاصة بالحمّام تضع فيه المرأة الصابون والمشط والدبابيس وغيرها، كما يعتبر آنية خاصة بالفرسان يحملونها معهم أثناء سفرهم إذ تعلّق في قربوس مسرج الحصان بواسطة حبل صغير، ويستعمل في هذه الحالة لملء الماء لدى مرور الفارس بمجازة دون أن يعين نفسه وينزل من حصانه، بالإضافة إلى استعمالها في ملء الماء من البئر، وملء الحليب عند مروره بقطيع من الماشية، ويمكن تمريرها من فارس لآخر دون أن يسقط السائل. ومن الوظائف الأخرى فهي تستعمل في المقاهي الموجودة في الفحوص كآنية لشرب الماء أو للوضوء، كما يمكن استعمالها في غرض آخر حيث تملأ بالروينة[16] كزاد يتقوّت به المسافر[17].

صورة رقم : 8 - سطل محدب الشكل
محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة- الجزائر-

3- الأواني الكبيرة العمق

وتشمل الدلاء والقدور والميضئات والأباريق والجرار.

1.3 – الدلاء (صورة رقم : 9)

مفردها دلو وهو إناء عميق يعرف في الجزائر باسم محبس، وهو كبير الحجم ذي أعماق مختلفة يحوي على قاعدة وفوهة متسعتين، يستعمل في غالب الأحيان في الحمام لحفظ الماء، وللمحبس وظائف مختلفة تختلف باختلاف أحجامه وأشكاله وبالتالي ظهرت أنواع عديدة، وظيفتها هي حفظ الماء أثناء الاستحمام، وهو شكل بسيط ذي قاعدة وفوهة متسعتين، لملء أكبر قدر ممكن من الماء، وليتمكن الإنسان من إدخال الطاسة بسهولة، وأخرى خاصة بالمرأة لحفظ ملابسها المستعملة في الحمام كالفوطة والتشيفة وغيرهما.

صورة رقم : 9 - دلو حمام اسطواني الشكل

محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية- الجزائر-

2.3- القدور(صورة رقم : 10)

مفردها قدر وهي أواني خاصة لطهي الأطعمة تعرف باسم قازان[18]، مصنوعة من النحاس الأحمر ومغطاة بطبقة من القصدير وهي ثقيلة الوزن، تشبه إلى حد كبير المحبس المستعمل في الحمام، أحجامها متقاربة وهذا لكونها تقوم بنفس الوظيفة، يتكون القدر من قاعدة مقعّرة ومن بدن منتفخ في معظم الأحيان، يحوي على مقبضين وينتهي بفوهة تكون إما ضيّقة أو واسعة حسب وظيفتها، يستعمل هذا النوع من القدور في غالب الأحيان لطهي المأكولات اللذيذة كالمربى مثلا. يزخرف القدر بأشرطة عريضة تحتوي على أشكال هندسية ونباتية وعمائرية منفّذة بأسلوبي الحز والنقش، وأحيانا تكون خالية من أي زخرفة. وهناك قدور يخلط بينها وبين

المحبس إذ تحوي على مقبض يعلو الفوهة، وهذا النوع أقرب إلى القدر منه إلى المحبس حيث يستعمل عادة في تسخين الماء.

صورة رقم : 10- قدر أسطواني الشكل

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة - الجزائر-

3.3- **الميضئات** (صورة رقم : 11)

مفردها ميضأة وهي عبارة عن آنية نحاسية تتكون من ثلاث قطع مختلفة، وهي الحوض الذي يسكب فيه الماء عند الغسل، والمعروف بتسميات محلية مختلفة، ففي مدينة الجزائر مثلا يعرف باسم الليان، ويعرف في مدينة قسنطينة باسم القروانة أو الكيروانة، وهو ذات أشكال مختلفة، فمنها المستدير ذي بدن مرتفع أو بدن منحني إلى الخارج وهذا الأخير يستعمل خصّيصا لوضع الجمر، ويحتوي على غطاء مخرّم لتتسرّب الحرارة إلى الماء الموجود داخل الإبريق، كما يحتوي الحوض على قواعد مسطّحة وغير مسطّحة أو ترتكز على قويعدة، ويثبّت مقبضان في أعلى الأبدان في غالب الأحيان.

أما بالنسبة للقطعة الثانية، فهي عبارة عن غطاء يوضع عليه الإبريق، وفيما يخص القطعة الثالثة، تتمثّل في إبريق الماء ذي البدن المنتفخ يتوسطه من الجانبين مقبض وصنبور لسبك الماء في الحوض (الليان والقفطيرة)، ويستعمل عادة في غسل اليدين وقت الأكل، وينتهي البدن بفوهة تعلوها غطاء مدبّب، يعرف هذا الإبريق باسم القفطيرة[19] بمدينة قسنطينة. وهناك أباريق ذات عنق طويل ومقبض منحني، تستورد بكثرة من القسطنطينية. تصنع هذه الميضئات كذلك من الفضة، وهي تقتصر عادة على العائلات الغنية[20].

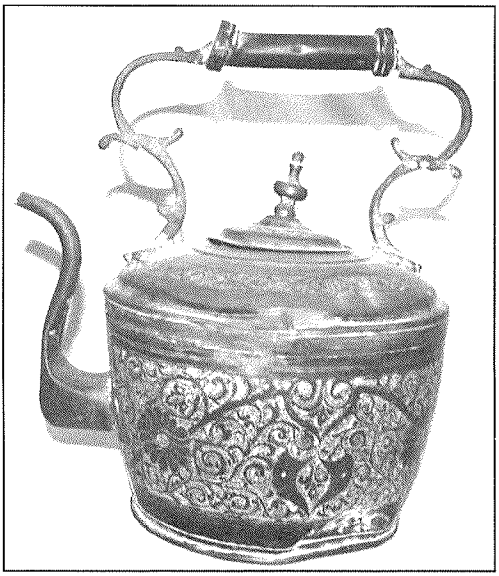

صورة رقم : 11 – إبريق خاص بالميضأة

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة - الجزائر-

4-2 الأباريق

تعددت الأباريق واختلفت أشكالها ووظائفها، فمنها أباريق خاصة بالماء، وأخرى خاصة بالقهوة والشاي تتميّز كل هذه الأنواع بالدقة والإتقان في الصنع.[21]

1.4.3 - أباريق الماء (صورة رقم : 12)

وهي مخصّصة لسبك الماء تعرف باسم الدورق، وغالبا ما يكون حجمها كبيرا على شكل قمقم، تتكوّن من قاعدة وبدن وعنق بالإضافة إلى مقبض وصنبور، تزخرف بأشكال متنوّعة ومختلفة.

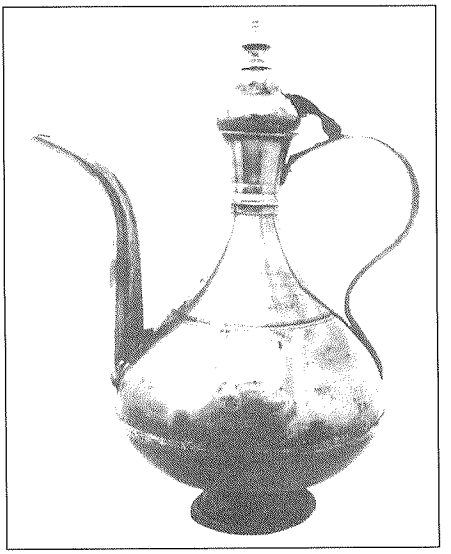

صورة رقم : 12- إبريق الماء على شكل قمقم

محفوظ بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية – الجزائر-

2.4.3- **أباريق القهوة والشاي** (صورة رقم : 13)

تعرف محليا باسم بقراج، وهذا الأخير متداول كذلك في مصر وبلاد المغرب[22]، يصنع من الفضة أو النحاس، شكله منخفض ذي بدن عريض وصنبور صغير في العنق، وغطاء على شكل قبة مسجد، يسمى هذا النوع كذلك باسم قهوييري[23]، وكان الانكشاريون الجدد يحملون هذه الأباريق معهم في أغراضهم، أما أعضاء الاوجاق الذين يبلغون سن التقاعد فإنهم يعطونها كأوقاف على الاستعمال الجماعي للمقيمين الجدد في الحجر التي كانوا يشغلونها، وهذا عندما يغادرون المصلحة التي يشتغلون بها، وكانت هذه الأباريق تحمل كتابات عبارة عن حكم وأقوال[24].

لقد تنوعت أشكال وأحجام هذه الأباريق، فيوجد منها الكبير والصغير بأبدان ومقابض وصنابير مختلفة، كما يوجد منها الثقيل والخفيف لكل واحد غرضه الخاص، فالخفيف يستعمل لطهي القهوة ويسمى غلاية، أما الثقيل والذي يسمى محليا برّاد فتصب فيه القهوة الساخنة التي سبق وأن طهيت في الغلاية، ويرجّح أن يرتبط ثقل البرّاد في حفظه للقهوة ساخنة لمدة طويلة وبذلك فهو يؤدي دور قارورة حافظة للحرارة (Thermos)، بالإضافة إلى ذلك فقد وجد نوع آخر من الغلايات خاص بتحضير القهوة يسمى جزوة وهي تركية الأصل تحتوي على مقبض طويل، وجد هذا النوع في كل البلدان التابعة للخلافة العثمانية، كسوريا ومصر وبلاد المغرب كما وجدت في بلغاريا كذلك[25].

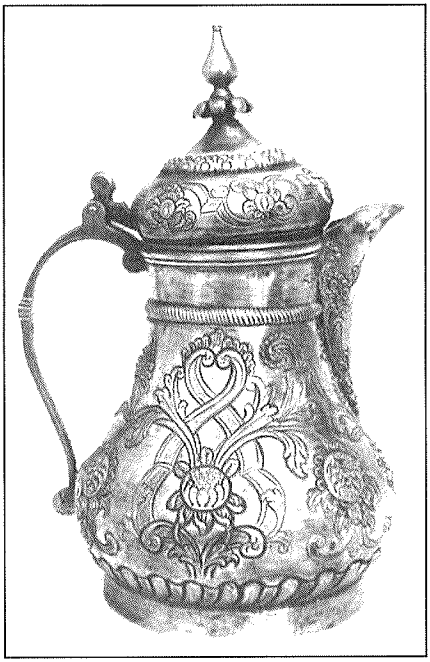

صورة رقم : 13– إبريق مخروطي الشكل
محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة - الجزائر-.

5.3- الجرار

الجرار هي عبارة عن أوعية خاصة بالماء تصنع من النحاس الأحمر، وهي مختلفة الأحجام والأشكال، أبدانها في غالب الأحيان ناقوسية الشكل أو كروية منتفخة، ترتكز على قاعدة أو بدونها، لها مقبض يتماشى وشكل الجرة، يعلو البدن عنق وغطاء مختلف الأشكال، وغالبا ما تكون هذه الجرار خالية من الزخرفة أو بزخارف بسيطة.

تعرف هذه الجرار محليا باسم قمقوم اللويز، يظن البعض أن لهذه الجرار وظيفتان، تتمثّل الأولى في حفظ الماء والثانية لحفظ النقود الذهبية، لكنه حسب التسمية فقمقوم هي تحريف لقمقم(شكل القمقم) واللويز هي تحريف لكلمة الإوز أي ذات شكل إوزة. كما يدخل ضمن هذه الجرار أوعية لحفظ الماء تسمى بالسبّالة وهي كبيرة الحجم وناقوسية الشكل (صورتان رقم : 14 و15)، زوّد بدنها بحنفية وعنق يحوي هذا الأخير على مقبضين، خصّص هذا النوع ربما لعابري السبيل.

وهناك أواني معدنية كثيرة كأواني خاصة لحمل الماء وأخرى خاصة بالحلاّق وغيرها من الأواني(صورة رقم : 16)، كما يجدر بنا التحدّث عن أنواع أخرى كالشمعدانات والمباخر، فالشمعدانات مثلا كانت معروفة في الجزائر خلال العهد العثماني إلا أنه يبدو على الأرجح أن تكون صناعة أوربية، وهي مصنوعة من النحاس ونادرا ما تصنع من الفضة، وقد كانت تسمى في الجزائر باسم حسكة.[26]

أما بالنسبة للمباخر فهي أدوات التبخير يحرق فيها البخور، مصنوعة من النحاس الأحمر تتألف من قطعتين، الأولى خاصة بوضع البخور والثانية عبارة عن غطاء مخرّم لغرض انتشار الرائحة الطيبة منه، لكن أجمل الأنواع تصنع من الفضة المكفتة والمرصّعة بالمرجان، وهناك أمثلة في غاية الدقة والجمال محفوظة بالمتاحف الجزائرية.

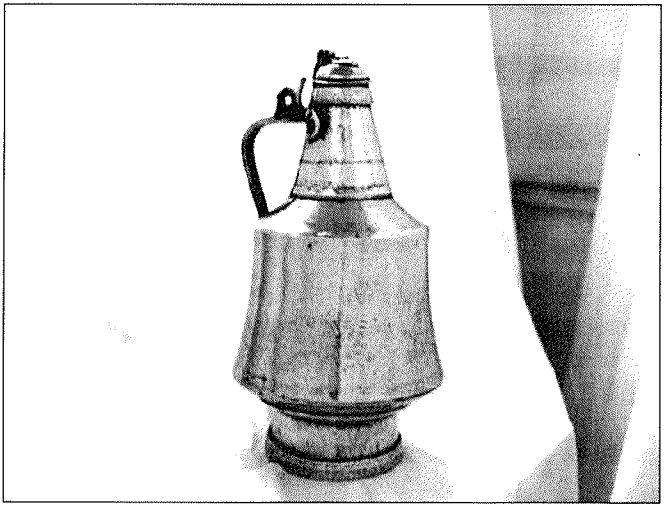

صورة رقم : 14- جرة ماء ناقوسية الشكل.

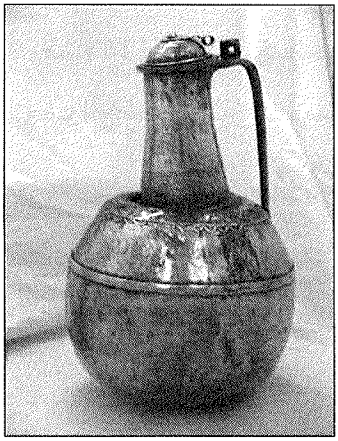

صورة رقم : 15- جرة ماء كروية الشكل

محفوظتان بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية - الجزائر-

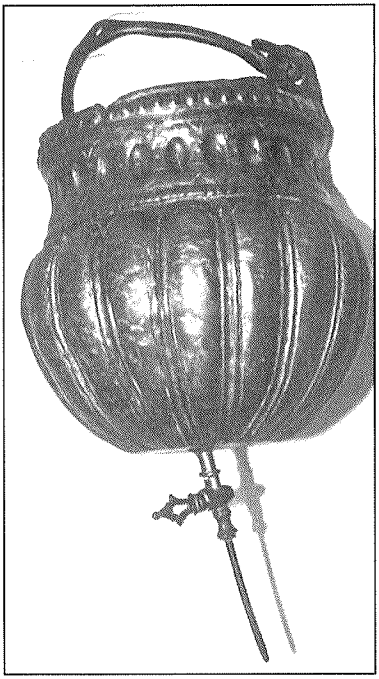

صورة رقم : 16 آنية خاصة بالحلاق-

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة- الجزائر-

الهوامش :

1- Guiauchain G., Alger, Alger, 1909.p.123.
2- Desmet -Gregoire H., Les objets du café, Presses du CNRS, Paris, 1989. p. 58.
3- Ricard P. Les arts et les industries indigènes du nord de l'Afrique, Fès, 1918, p. 300
4- Ben Cheneb M., Mots turks et persans conservés dans le parler algérien, S.L. 1922, pp : 31-85.
5- Ibid. p. 82.
6- Ader Picard Tajan, Art islamique, Collection Drouot, Paris, 1984, p.15.
7- Dozy R., Supplément aux dictionnaires, t. 1, Leyde, E. J.Brill, 1881, p.687.

8- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830 مقاربة اجتماعية- اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2000-2001، ص 162.

9-Rozet M., Voyage dans la régence d'Alger, t. 2, Alger, 1833. p. 65.

10- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 366.

11- عبد المنعم العلايلي، معجم المصطلحات العلمية والفنية، مجلد.7، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)، ص، 41.

12- Eudel P., Dictionnaire des bijoux de L'Afrique du nord, Ernest Leroux, Paris, 1906, p. 221.
13- Eudel P., L'Orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902. p. 46
14- Eudel P, Dictionnaire...p. 209.

15- **الروينة :** قمح مطحون.

16-Eudel P., Dictionnaire..., pp : 207-208.
17- Ben Cheneb M., Op. Cit., p. 59.

18- **القفطيرة :** أخذت هذه التسمية ربما من الكلمة الفرنسية Cafetière.

19- Eudel P., Dictionnaire..., p. 75.
20- Boyer P., La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Paris, 1963. p.152
21-Desmet Gregoire H., Op. Cit., p. 53.
22- Eudel P., Dictionnaire...p. 76.

23- وليم سنبسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة : زبادية عبد القادر، الجزائر، 1980، ص 93.

24- Desmet-Gregoire H., Op. Cit., p. 62.
25- Eudel P., Dictionnaire...p. 71.

البيبليوغرافيا

- سنبسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة : زبادية عبد القادر، الجزائر، 1980.
- عبد المنعم العلايلي، معجم المصطلحات العلمية والفنية، مجلد.7، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)
- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830 مقاربة اجتماعية- اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2000-2001.

-Ader Picard Tajan, Art islamique, Collection Drouot, Paris, 1984.

-Ben Cheneb M., Mots turks et persans conservés dans le parler algérien, S.L. 1922.

-Boyer P., La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Paris, 1963.

-Desmet -Gregoire H., Les objets du café, Presses du CNRS, Paris, 1989. p. 58.

Dozy R., Supplément aux dictionnaires, t. 1, Leyde, E. J.Brill, 1881. -

-Eudel P., L'Orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902.

-Eudel P., Dictionnaire des bijoux de L'Afrique du nord, Ernest Leroux, Paris, 1906.

-Guiauchain **G.,** Alger, Alger, 1909.

- Ricard P., Les arts et les industries indigènes du nord de l'Afrique, Fès, 1918

-Rozet M., Voyage dans la régence d'Alger, t. 2, Alger, 1833.

فخار وخزف تيهرت
من خلال المجموعة المحفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة

أة. بن مصباح مليكة
المتحف الوطني للآثار القديمة

تأسست في قلب المغرب الأوسط دولة الرستميين بقيادة عبد الرحمان بن رستم، وكانت عاصمتها تيهرت التي أُنشئت سنة 160 هـ / 776 م. وكانت قائمة على المذهب الإباضي تحت إدارة وإشراف رئيسها الأعلى الملقب بالإمام[1].

كتب المؤرخون والباحثون والجغرافيون العرب عن تيهرت مبرزين أهميتها ونشأتها وموضعها من المغرب والمشرق الإسلاميين، فقصدها العام والخاص حيث اتسعت ونمت وكبرت، فأصبحت معلما من معالم التراث الإسلامي الجزائري. بلغت تاهرت شأنا عظيما من المدنية والعمران ومن توفر أسباب الحضارة والرفاهية، حيث أنها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق، فكانت تدعى *بعراق المغرب*[2]، وقد أسس الرستميون مكتبة عربية إسلامية تسمى *المعصومة* جمعوا فيها من الكتب القيمة في مختلف العلوم والتاريخ والرياضيات الشيء الكثير[3]، كما بنوا أسواقا عامرة وحمامات كثيرة[4].

كانت تيهرت بحكم موقعها بين المغربين الأدنى والأقصى وبحكم علاقتها الحسنة مع بلاد الأندلس والسودان وسجلماسة تحتل مركزا تجاريا ممتازا في بلاد المغرب كلّها، وتعد إحدى المحطات الاقتصادية، فكانت طرق القوافل معبدة تصل إليها من فاس والقيروان وسجلماسة وبلاد السودان. وكان الرستميون يصدرون إلى السودان المنسوجات الصوفية والكتانية والحرير والقوارير الزجاجية والأواني الخزفية البراقة والملوّنة[5]، وهذا يعني أن تيهرت كانت تنتج الفخار والخزف وكان لها اكتفاء ذاتي ما دامت تصدّر منه وأن هذا الأخير وجد له سوق في الخارج.

يعتبر موقع تاهرت الأثري من المواقع التاريخية الهامة في سجل الآثار الإسلامية بالجزائر، حيث أجرى جورج مارسيه (Marçais G) وديسوس لامار (Dessus-Lamare) حفريات في سبتمبر من سنة 1941م[6]، وممّا صعب مهمتهما كأثريين هو أن الأمير عبد القادر بني مدينة تقادمت على أطلال مدينة تيهرت سنة 1252هـ/ 1836م، ومع ذلك أسفرت حفرياتهما على إعطائنا تصميما افتراضيا للمدينة، حيث تم اكتشاف مطامير* ومخازن الماء وبعض القطع الفخارية[7]. كما واصل السيّد كادنا (CADENAT) أعمال التنقيب بين سنتي 1958م و1959 وعثر على مجموعة كبيرة وهائلة من الفخار والخزف سلّمها للمتحف الوطني للآثار القديمة[8]. ولكن يجب أن نعلم أن ما قام به السيد كادنا ليس بالحفرية بمعناها الحقيقي، وإنما هي عبارة عن أسبار لمعرفة أهمية الموقع، ولهذا فقد طرحت اللقى الأثرية المكتشفة بما

فيها الفخار والخزف مشكلة تأريخية لأنها لا تحتوي على عناصر تأريخية مطلقة، وبالتالي أرخت عموما بالقرن 3هـ/ 9م[9].

تميز فخار وخزف تاهرت بأنهما محليان، إذ وجدت بعض القطع المشوهة والتي تُركت بعد التشكيل مباشرة، وبقايا لكسور قضبان الفرن المستديرة التي استعملت كحامل للأواني ورجل الديك كفواصل لها ممّا يدّل على وجود ورشات.

تنوعت الأواني وتعددت أشكالها ووظائفها، فكانت في مجملها أواني خاصة بالحياة اليومية :

- أواني لتقديم الطعام : صحون مفلطحة وأخرى غائرة، أقداح وقصعات وجفينات. (اللوحة 1، 2، 3، 4، 9، 12).
- أواني لحفظ الماء وأخرى للشرب : القارورات والكوز.
- أواني لتخزين الطعام للمحافظة علية : الجرار الكبيرة.
- أواني للطهي : القدور والكسكاس وقد وُجد هذا الأخير على شكلين : شكل مخروطي، وشكل منبسط بجدران قائمة. (اللوحة 2، 24)
- أدوات الإنارة : وتتمثل في المصابيح، وهي على نوعين :

النوع الأول : ذات فوهة طويلة وثقب بسيط أو ثقب قد يمتد أفقيا ليُكون رقبة مع مقبض.

النوع الثاني : بدون فوهة ممتدة بل لها ثقب فقط، ومزودة بممسك، وهو يشبه المصباح الذي يسمي بـ " المحبرة "[10].

غلب الفخار العادي على الخزف، إذ بلغت نسبة الفخار 85 %، بينما لا يمثل الخزف إلا 15 %. صُنعت أغلب القطع بالدولاب صناعة سليمة، فيما عدا بعضها، فقد صنع على مرحلتين : الأولى باليد والثانية بالدولاب. وشكلت من طينات مختلفة : كالطينة الحمراء والبنية والزبدية والرمادية تغطيها في كثير من الأحيان بطانة بيضاء.

فيما يخص الزخرفة على الفخار فقد غلبت عليها الزخرفة بالحز وبالكشط وبالثقب :

الزخرفة بالحز

تعد الزخرفة بالحزّ من أقدم الطرق الزخرفية وأبسطها فقد رافقت الإنسان منذ اكتشافه للصناعات الطينية، وكانت إحدى الطرق المستعملة في زخرفة الفخار والخزف الإسلاميين منذ عهوده الأولى. وهي لا تتطلب مهارة كبير، إذ أنها تتم بإحداث حزوز أو خدوش على بدن الإناء من الداخل أو الخارج وقد يكون سمك الحز عميقا أو سطحيا (خفيفا).

تشكل هذه الحزوز باليد سواء بواسطة أداة حادة ذات خط منكسر مجوف، عادة ما تكون من القصب أو العظم أو الخشب[11]، أو بواسطة المشط الذي يوجد على أنواع، وهذا التنوع يكمن في عدد أسنانه التي تكون ثلاثة أو أربعة أو سبعة أو تسعة أو حتى أربع عشرة سنا (اللوحة 1، 12) و(اللوحة 2، 26، 27، 28). وتحدث عملية الحزّ إما خلال مرحلة التشكيل بالدولاب أو بعدها، لإنجاز زخارف هندسية

بسيطة قوامها خطوط متنوعة : كالمستقيمة والمتوازية والمتموجة والمنكسرة، إلى جانب مثلثات بسيطة وأخرى مضاعفة.

الزخرفة بالكشط

نفذت هذه الطريقة الزخرفية بأداة حادة ذات نهاية عريضة، ويختلف هذا العرض حسب نوع الزخرفة المراد تحقيقها، ومن أهم العناصر الزخرفية عنصر المثلث الذي وجد على حالتين : إما منفردا أو في سلسلة تكون فيها المثلثات متحدة في أحد أضلاعها الجانبية، أو منفصلة عن بعضها البعض بخط عبارة عن كشط أو حز. رسمت عناصر هندسية أخرى بواسطة الكشط كالخط المستقيم والمنكسر وتسنينات صغيرة تحيط بالشفة ودوائر متتابعة على مسافات متقاربة (اللوحة 1، 5، 7) و(اللوحة 2، 16). كما نجد زخرفة مزدوجة تجمع بين الحز والكشط، تُحدث على البدن والشفة والمقبض.

الزخرفة بالثقب

يتحصل عليها الصانع بحفر عميق لبدن الآنية الفخارية حيث أنه يتمادى في الحفر ويصبح ثقبا، وجد نموذجان لهذه التقنية : النموذج الأول ثقب على شكل لوزي والنموذج الثاني ثقب على شكل مثلث. والغرض عموما من هذا الثقب هو إدخال الخيط، ووضع الآنية على الجدران لتزيين الغرفة. ويسمى هذا الثقب باللغة الفرنسية بـ trou de suspension، وقد عُرّف في الفخاريات القديمة، واستعمل لنفس الغرض غير أن الآنية المعلّقة تكون إما صحنا أو تمثالا.

الزخرفة بالإضافة

هي زخرفة بسيطة جدا، تتمثل في قطعة طويلة من العجينة (boudin) تُلصقُ بالضغط على جدار الآنية بواسطة اليد. وبطريقة الضغط كذلك تُحدث على هذه الإضافة زخرفة أخرى، أغلبها عناصر هندسية.

ويعتبر الخزف أكثر تطورا ورقيا من حيث التقنية والزخرفة من الفخار، وهو يشمل الخزف الأحادي اللون، وفيه تطلى الأواني بطلاء أخضر (أساسه أكسيد النحاس) من الداخل أو من الخارج، أو من الجهتين معا. ويشمل كذلك الخزف الثنائي اللون ويتميز بخلوه من الزخرفة، كأن يكون لون معين من جهة داخلية وآخر مخالف من جهة خارجية، أو تركيبة من لونين مختلفين من جهة واحدة، كاللون الأخضر والأصفر معا أو اللون الأخضر والأخضر الفستقي أو اللون الأخضر والبنّي.

أما الخزف المتعدد الألوان فتتجلى فيه ألوان منسجمة، لكنها محصورة : فيه اللون الأصفر أو الأصفر الخردلي كقاعدة، عليها اللون البني لتحديد العنصر الزخرفي والأخضر لملئه. هذه التقنية في استعمال الأخضر والبني على خلفية صفراء سبق وأن رأيناها في خزف رقادة**، التي أسرفت في استعمال هذا الطلاء حتى عُرّف "بأصفر رقادة" أو "**jaune de Raqqada**" (اللوحة 5، 1، 2، 3). كما وجد هذا النوع من الخزف بعدة مواقع : كموقع سطيف الذي

كان تحت حكم الأغالبة في الفترة الإسلامية وبعض النماذج بقلعة بني حماد. ويحتمل أن تكون هذه الصناعة استمرت إلى غاية القرن 5هـ /11 م[12].

أما بالنسبة للمواضيع الزخرفية فهي متعددة وفي معظمها زخرفة هندسية تذكرنا في بعض ملامحها بالزخرفة الهندسية البربرية التي نجدها على الخشب والزرابي، فهناك الخطوط المستقيمة والمتموجة والمنكسرة. قد يكون لهذا العنصر الهندسي الأخير معنى رمزي، كالثعبان مثلا، الذي يرمز إلى الخصوبة وهو موجود على الخزف البربري. بالإضافة إلى المشبكات داخل مربع أو دائرة وكذا الدوائر وأنصاف الدوائر ودوائر متداخلة ومثلثات بسيطة وأخرى متقابلة الرأس ومعينات (اللوحة 3) و(اللوحة 4). إلى جانب ضفائر وإن هي قليلة جدا، والمغازل وأشواك السمكة التي وُجدت كذلك على خزف نقرين***. كما توجد عناصر أخرى توحي بزخرفة نباتية كالأوراق البسيطة والمضاعفة وأخرى توحي بزخرفة حيوانية، وأخرى توحي بعناصر كتابية (اللوحة 6، 1)، لكن صغر القطع لم تسمح بتحليل دقيق لكل هذه العناصر.

لقد تميز فخار وخزف تاهرت بثرائه من حيث الأشكال لكنه فقير من حيث استعمال الألوان والطلاءات وغياب البريق المعدني يدل على وجود صناعة نصف راقية كما وصفها جورج مارسيه[13] ولكنها على العموم لا تخرج عن نطاق صناعة الفخار

والخزف في بلاد المغرب الإسلامي. وجمعت زخارفها بين العناصر المحلية البسيطة ذات التركيبات المعقدة التي ورثها الخزافون من التراث البربري العتيق، وبين الزخارف المشرقية التي وجدت طريقها إلى بلاد المغرب عن طريق مهاجرين من العراق وخراسان استقروا في هذه المنطقة[14]، وليس من المستبعد أن يكون من بين هؤلاء المهاجرين خزافون علّموا الصناع المحليين أساليبهم الفنية الجديدة.

الهوامش :

(1) الجيلالي (عبد الرحمن)، **تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط6، 1403هـ/1983م، ص. 220.

(2) العفيفي (عبد الحكيم)، **موسوعة ألف مدينة إسلامية**، بيروت، 2000، ص.159.

(3) المدني (أحمد توفيق)، **كتاب الجزائر**، الجزائر، 1984، ص. 78.

(4) البكري (أبي عبيد الله ابن عبد العزيز)، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، الجزء الثاني، تونس، 1992م، ص.733.)

(5) سالم (عبد العزيز)، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ت)، ص. 391.

(6) Marçais (G.), Dessus- lamare(A.), « **Recherches d'archéologie musulmane Tîhert – Tagdempt (Août- Septembre)**, in : R.A., T.XC, 1946.pp.46-57.

* مطامير مفرد مطمور، وهو الجرة الكبيرة التي تخزن فيها الحبوب.

(7) بن مصباح (مليكة)، بوزرينة سعيد، **الدولة الرستمية**، كتالوج " الجزائر...تراث وحضارة" من خلال مجموعات المتحف الوطني للآثار القديمة، اليوم العامي للمتاحف 18 ماي 2010.

(8) Cadenat (P.), -« Recherches à Tîhert- Tagdempt, 1958-1959 », in : Bulletin d'archéologie Algérienne, T.VII, Fasc.II.1977-1979, p.403.

(9) جليد (عقيلة)، "**الخزف الإسلامي في المغرب الأوسط ما بين القرنين 3هـ- 8 هـ/ 9م- 14م**"، كتالوج المراكز العمرانية الكبرى في المغرب الأوسط، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ص. 263.

(10) Cadenat (P.), Op.Cit, p. 405.

(11) Sauvaget (J.), **Introduction à l'étude de la céramique Musulmane**, Paris, 1966, p.30.

** تعتبر مدينة رقادة عاصمة الأغالبة، أسسها إبراهيم الثاني سنة 263هـ / 876 م وهي قريبة من القيروان، حيث تبعد عنها ب 9كم.

(12) جليد (عقيلة)، المرجع السابق، ص. 265.

*** تقع واحة نقرين على مسافة 150 كم جنوب غرب مدينة تبسة وقد عثر السيد موريس ريغاس (**Maurice Reggasse**) سنة 1925 م فوق أرضيتها على مجموعة هامة من القطع الفخارية والخزفية، كما عثر السيد هانري باسي (**Henri Basset**) في نفس المنطقة على قطع أخرى أثرت هذه المجموعة. لم تكن هذه المجموعة محل دراسة منهجية غير أن السيد مارسيه (**Marçais**) هو أول من أشار إليها، ثم تناولها من بعده السيد جورج بيانال (**Pianel G**) بدراسة وافية.

(13) Marçais (G.), Dessus- lamare (A.), Op. Cit, p.57.

(14) اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن وهب)، **وصف إفريقيا الشمالية**، مأخوذ من كتاب البلدان، نشره هنري بيريس، الجزائر، 1380هـ/ 1960 ص. 6.